من اعجاز القرآن البياني: تناسق نَظْمه و تناسُب نَغَمه

آية‌الله محمّد هادی معرفة

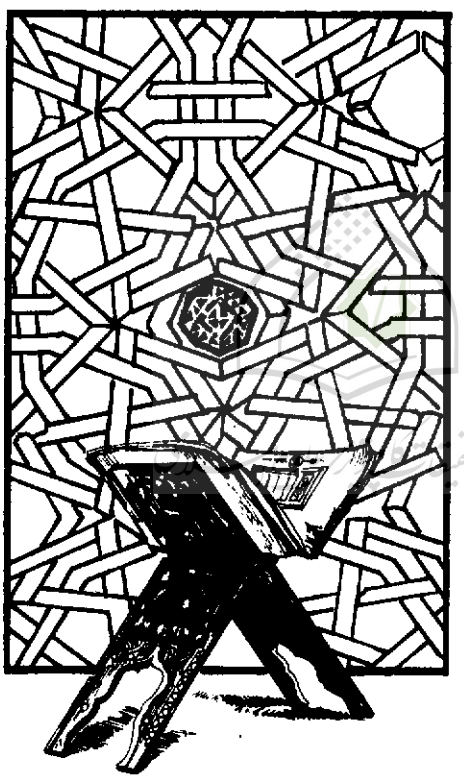

وهو جانب خطير من اعجاز القرآن البياني، لمسته العرب منذ اوّل يومها فبهرتهم روعته و دهشتهم رنته، فأخضعهم للاعتراف فی النهاية بانّه كلام يفوق طوع البشر وانه كلام الله.

انه جانب «اتساق نظمه و تناسب نغمه» وايقاعاته الموسيقية الساطية على الأحاسيس، والآخذة بمجامع القلوب. وهذا الجمال التوقيعی للقرآن يبدو جلياً لكل من يستمع الى آياته تتلى عليه، حتى ولو كان من غير العرب فكيف بالعرب انفسهم. واوّل شيئ تحسّه الآذان عند سماع القرآن هوذا نظامُه الصوتی البديع، الذّی قُسّمت فيه الحركات والسكونات تقسيماً متنوعاً و متوزعاً على الألحان الموسيقية الرقيقة، فينوّع ويحدّد نشاط السامع عند سماعه، ووزّعت فی كلماته حروف المدّ والغنّة توزيعاً بالقسط، يساعد على ترجيع الصوت به، وتهاوی النَفَس فيه آناً بعد آن، الى ان يصل قمتها فی الفاصلة، فيجد عندها راحته الكبرى.. على ما فصّله أساتذة الترتيل.

وربّما استمع الانسان الى قصيدة، وهی تتشابه اهواؤها وتتساوق انغامها، ولكنه لايلبث ان يملّها، ولاسيما اذا اعيدت عليه وكرّرت بتوقيع واحد.. بينما الانسان من القرآن فی لحن متنوع ونغم متجدّد، ينتقل فيه بين اسباب واوتاد وفواصل[1]. على اوضاع مختلفة، يأخذ منها كل وتر من اوتار القلب، نصيبه بسواء، فلايعرو الانسان على كثرة ترداده ملال اوسأم، بل لايفتأ يطلب منه المزيد...

واحياناً كانت العرب تعمد الى مايقرب من هذا النحو من التنظيم الصوتی فی اشعارها لكنها كانت تذهب مذهب الاسراف والاستهواء المملّ فی الأغلب، ولا سيما عند التكرير. اما فی منثور كلامها، سواء المرسل منه او المسجوع، فلم تكن عهدته‌قطولا كان يتهيألها بتلك السهولة والمرونة والعذوبة التی فی القرآن الكريم. بل ربما كان يقع لها فی اجود منثورها عيوب تغضّ من سلاسة تركيبه، بمالا يمكن معها من اجادة ترتيله، الا بتعمل يبدو عليه اثر

التكلف والتعسّف الامر الذى كان يحطّ من شأن الكلام.

فلا عجب اذن ان يكون الألقاب الى القرآن ـ في خيال العرب ـ انّه شعر، واذا لم يكن بشعر فهو سحر.. وهذا يكشف عن مدى بهرالعرب وحيرتهم تجاه هذا النوع من الكلام المنضّد البديع، كان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته!!

قال الأستاذ دراز: ويجد الانسان لذة بل وتعتريه نشوة اذا ماطرق سمعه جواهر حروف القرآن خارجة من مخارجها الشحيحة، من نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب اوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النَفَس، وآخر يحتبس عنده النَفَس، فترى الجمال النغمي ماثلاً بين يديك، في مجموعة مختلفة ولكنها مؤتلفة لاكركرة ولاثرثرة، ولارخاوة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر، وهكذا ترى كلاماً ليس بالبدوى الجافي ولا بالحضرى الفاتر. بل هو ممزوج مؤلّف من جزالة ذاك ورقة هذا، مزيجاً كأنه عصارة اللغتين وسلالة اللهجتين.

نعم من هذا الثوب القشيب يتألف جمال القرآن اللفظى، وليس الشأن في هذا الغلاف الأكشأن الأصداف، تتضمن لئالى نفيسة، وتحتضن جواهر ثمينة، فان لم يُلهك جمال الغطاء عما تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الستار عماوراءه من السّر المصون، فَفَلَيْتَ القشرة عن لبّها، وكشفت الصدفة عن درّها، فنفذت من هذا النظام اللفظى الى تلك الفخامة المعنوية تجلّى لك ماهو أبهى وابهر، ولقيت منه ماهو أبدع واروع. تلك روح القرآن وحقيقته، وجذوة موسى التى جذبته الى نار الشجرة فى شاطئ الوادى الايمن في البقعة المباركة، فهناك نسمة الروح القدسية: «إنى انا الله ربّ العالمين»[1]

وقال الرافعى: كان العرب يتساجلون الكلام ويتقارضون الشعر، وكان اسلوب الكلام عندهم واحداً: حرّا فى المنطق وجزلاً فى الخطاب، فى فصاحة كانت تؤاتيهم الفطرة وتمدّهم الطبيعة، فلما ورد عليهم اسلوب القرآن رأوا الفاظهم بأعيانها متساوقة ليس فيها اعنات ولا معاياة. ووجوه تركيبه ونسق حروفه ونظم جمله و عبائره، ما اذهلهم هيبةً وروعةً، حتى احسّوا بضعف الفطرة وتخلّف الملكة. ورآى بلغاؤهم جنساً من الكلام غيرماهم فيه، راوا حروفه فى كلماته، وكلماته فى جمله، ألحانا نغمية رائعة، كانها لائتلافها وتناسقها قطعة واحدة، قرائتها هى توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى وكان أبين لعجزهم.

وكل الذين يدركون اسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية، يرون ان ليس فى الفنّ العربى بجملته شيئ يعدل هذا التناسب الطبيعي فى الفاظ القرآن واصوات حروفه. وما احد يستطيع ان يغتمز فى ذلك حرفاً واحداً. والقرآن يعلو على الموسيقى انّه مع هذه الخاصّة العجيبة ليس من الموسيقى.

انه مادة الصوت هى مظهر الأنفعال النفسى فى الانغام الموسيقية، بسبب تنويع الصوت مداً وغنة واينا وشدة ومايتهيأله من حركات مختلفة، وبمقدار مايكسبه من الحدرة والأرتفاع والأهتزاز مما هو بلاغة الصوت فى لغة الموسيقى.

فلو اعتبرنا ذلك فى تلاوة القرآن، لرايناه ابلغ ما تبلغ اليه اللغات كلها، فى هزّ الشعور واستثارة الوجد النفسى. ومن هذه الجهة تراه يغلب على طبع كل عربى اوعجمى. وبذلك يؤوّل ماورد من الحث على تحسين الصوت عند قراءة القرآن.

وما هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن الاّ صورا تامة للابعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى، وهى متّفقة مع آياتها فى قرارات الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت، والوجه الذى يساق عليه، بماليس وراءه من العجب مذهب. وتراها أكثر ماتنتهى بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها. او المدّ، وهو كذلك طبيعى فى القرآن[1].

* * *

وقال بعض اهل الفنّ: كثر فى القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللين والحاق النون، وحكمة وجودها التّمكّن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه: انّهم ـ اى العرب ـ اذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون، لانّهم ارادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك اذا لم يترنّموا. وجاء فى القرآن على اسهل موقف واعذب مقطع.

فان لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه واليق بموضعه. واكثر مايكون فى الجمل القصار، ولا يكون الا بحرف قوىّ يستتبع القلقلة او الصفير او نحوهما مما هو موصوف بضروب اخرى من النظم الموسيقى.

وهذه هى طريقة الأستهواء الصوتى فى اللغة، واثرها طبيعى فى كل نفس فهى تشبه فى القرآن الكريم ان تكون صوت اعجازه الذى يخاطب به كل نفس، سواء كانت تفهمه أولا تفهمه.

فقد تألّفت كلماته من حروف، لوسقط واحد منها او أبدل بغيره اواقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيّناً، أو ضعفاً ظاهراً فى نسق الوزن وفى جرس النغمة، وفى حسّ السمع و ذوق اللّسان. وفى انسجام العبارة، وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها الى بعض. ولرأيت لذلك هجنة فى السمع.

(۱)من مصطلحات الافنان الموسيقية: «الحرف المتحرك اذا تلاه حرف ساكن. يقال له: سبب خفيف. والحرفان المتحركان لايتلو هما ساكن. سبب ثقيل. والمتحركان يتلو هما ساكن: وتد مجموع واذا توسطهما ساكن: وتد مفروق. و ثلاثة احرف متحركة: فاصلة صغيرة. و رابعة احرف متحركة يعقبها ساكن: فاصلة كبيرة، وهكذا... (النبا العظيم ص ۹۵).

(۲) النبا العظيم ص ۹۴ـ۹۹.

(۳) التصوير الفنى ص ۸۰ـ۸۳.

(۴) اعجاز القرآن ص ۱۸۸ و ۲۱۶.